محمد زفزاف

رواية

الأفعى والبحر

رؤية

الأفعى والبحر

روايـــــــة

محمد زفزاف

للنشر والتوزيع

2013

للنشر والتوزيع

2013

عنوان الكتاب : قبور في الماء (رواية)

اسم الكاتب : محمد زفزاف

المدير المسؤول : رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة : 012/3529628

6 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين

تقاطع ش شريف مع رشدي

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : + (202) 25754123

هاتف : + (202) 23953150

الإخراج الداخلي : حسين جبيل

جمع وتنفيذ : القسم الفني بالدار

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2013/31983

الترقيم الدولي : 978-977-499-079-3

1

كان سليمان قد وصل المدينة الصغيرة التي توجد قرب البحر أول أمس. وبما أن الحرارة شديدة وقوية في الدار البيضاء، فقد أثر ذلك عليه وجعله عصبيًا لا يطيق العالم من حوله. لذلك نصحه أبوه بأن يذهب إلى هناك، حيث البحر على الأقل يستطيع أن يعطي الشعور بالانشراح وعفوية الحياة وبساطتها. وقال له بأنه سيجد في انتظاره خالته حليمة، وسيرتاح من هذا الضجيج الذي حوله، ولن يرى أناسًا لا يرغب في رؤيتهم يطلون عليه كل وقت بسحناتهم القبيحة والفضولية. وقد استطاع أبوه أن يوفر له على الأقل ثلاثة بيوت هي ثمرة عمله وجهده الشاق كسائق في الشركة الوطنية

للنقل. مرت أربعون سنة ولم يكن سليمان يشبه أختيه في شيء. فقد كانتا عاديتين إلى حد بعيد. لذلك كانت نهايتهما طبيعية جدًا. فقد تزوجتا وأنجبتا واهتمتا بأبيهما أما والدتهما المرحومة فقد توفيت دون أن يرياها، ومع ذلك فهما تتمنيان لو أنها ما تزال على قيد الحياة لاهتمتا بها أكثر.

وصل سليمان أول أمس، وارتاح جيدًا للمكان الذي اختاره له أبوه. حتى تمنى لو يسكن فيه هو وأبوه بصفة نهائية بعيدًا عن تلك الضوضاء القبيحة والمثيرة للعصاب. وسأل خالته أول الأمر:

- أما زال يسكن نفس الجيران هنا؟

قالت الخالة: لا شيء تغير. هل تعتقد أن سنة كافية لتغيير كل شيء في مكان يرتبط به الناس أشد الارتباط. وأما تلك البيوتات الصغيرة والأكواخ فهي كما هي. لم يحدث ولن يحدث أي تغيير هنا. الناس بسطاء والبحر جميل. انظر البحر هل تراه؟

وأطل سليمان من النافذة، ووقف ذاهلًا متأملًا دون أن يتمكن من معرفة أي شيء يفكر فيه. وقالت خالته مرة ثانية:

- كان عليك أن تسافر قبل أن ينصحك والدك بذلك. لقد قضيت سنة طويلة في الدراسة. وذلك شيء متعب حقًا.

- أعرف. لكني لا أحب الحركة وإنما السكون.

وأضاف سليمان: لقد كتبت يا خالتي لثريا حتى تقضي معنا هنا أيامًا. إنها الفتاة الوحيدة التي أرتاح لها. أما الأخريات فهن تافهات إلى حد يبعث على الجنون. ثم إنها رفيقتي في الجامعة. وهي على قدر كبير من الثقافة. باختصار: إنها تفهمني كثيرًا.

قالت خالته: ذلك أحسن. رجل بلا امرأة شيء صعب. وامرأة بلا رجل شيء صعب. سأجد مع من أتحدث على الأقل؟ إنك تقضي وقتك كله كما أعرفك في مطالعة الكتب والنظر إلى البعيد، حتى أني أعتقد أنك أحيانًا ستفقد عقلك.

- ألا تجدين أن ذلك مريح بالنسبة لي ولك على الأقل؟

وطلب إلى خالته أن تذهب وتهتم بشؤونها في المطبخ لأن به جوعًا فائقًا. ثم أغلق عليه الغرفة، وتمدد فوق السرير وشعر براحة فائقة، وبدبيب خفيف يسري في جسمه. ثم أخذ يفكر في ثريا، ويستعرض طريقتها في الحديث، وملامح وجهها، وتحركات حاجبيها أثناء الانفعال. ولم يكن سليمان يهتم إلا بخصائص قليلة في المرأة تميزها. وكانت ثريا من ذلك النوع

من النساء الذي يثير اهتمام شخص مثله. لأنه صعب وغير مفهوم إطلاقًا من طرف نوعية خاصة من النساء. إنهن ينظرن إليه إما كأب صغير أو ابن كبير لهن. ولم يكن هو يحب ذلك. أما ثريا فيشعر أنها لا تعتبره هذا أو ذاك وإنما تلائمه، ولا تشبه الأخريات. ولعل ما شدّه إليها، انطواؤها على نفسها وعزوفها عن الناس والعالم، واهتمامها فقط بالكتب، الشيء الذي يجعلها تقترب من اهتماماته الخاصة. لكن هو، كان يحب السكون الكامل والخلود إلى الهدوء والانطواء. وكانت ثريا تقول له باستمرار:

- أتمنى أن نعيش معًا منعزلين في قرية صغيرة على جبل دون أن ننجب. نتأمل الطبيعة ونقرأ الكتب.

- ونفعل الحب. لكن هناك الملل.

- سنحاول أن نطرده بالقراءات الكثيرة وبالمناقشة.

- ذلك شيء حسن، لكننا لا يمكن أن نحققه. نحن في حاجة إلى مال.

- الأمر سهل. سنشتغل أربع أو خمس سنوات ونذّخر لذاك اليوم العظيم.

ثم أخذ سليمان يضحك من أفكارها، في حين كانت تنظر هي إلى الأمر بجدية، وقالت له وقد تقوس حاجباها وبدت عيناها حالمتين:

- إنني لا أمزح. اسمع يا سليمان: أنت تمزح كثيرًا حتى أثناء مواجهتك لأمور جدية.

وقال سليمان:

- في الواقع أنا لا أدري. لا أدري أي شيء على الإطلاق.

وسمع خالته تناديه بعد مرور وقت قليل. فقد سلقت له بيضتين وقطعة لحم. وحاول أن يطرد التعب الذي كبل جسده، ووقف وتمطط، وقال لخالته أن تدخل الطابلة إلى الغرفة حتى يتمكن من الأكل هنا. ففعلت ذلك على الفور وجلست قبالته على كرسي قصير، لكن لم تكن لديها شهية للأكل. ولم تكن الخالة عجوزًا، بل كانت السنوات الأربعون ظاهرة على جسدها السمين المكتنز. وحتى وجهها فهو يكتسي براءة وأنوثة.

كانت خالته قبالته وقد أسبلت جفنيها الحالمين وبدا لهداها بارزين بشكل ملحوظ تحت الدفينة الأنيقة التي تبرز انحناءات جسدها. وتساءل سليمان وهو يمضغ، ما إذا كان

رجل في حياتها، أو مجموعة رجال. وعلى كل حال، فهي تتحدث دائمًا عن شخص يدعى السي أحمد.. إن السي أحمد هذا يقول، وهو يشتري، وأحيانًا ذهب سي أحمد لكنه عندما زار طنجة توقف في أصيلة. ولم يعجب السي أحمد. على أن ذلك الرجل قال السي أحمد فسمعتها وكان سي أحمد. آه لو فعل ذلك فقط السي أحمد. أنا لا أدري يا ابني غير أنني سأسأل سي أحمد. صحيح. معقول، فسي أحمد قال ذلك تمامًا. إن أحمد اشترى، والسي أحمد لم يشتر. لكن سي أحمد. مثل سروال سي أحمد.

على كل حال يمكن أن يكون هناك سي أحمد آخر في حياتها، لكن سليمان لم يره قط ولم يتسن له التعرف عليه. وقالت خالته وقد بدا عليه أنه اكتفى من الأكل:

- كُلْ.. لقد قلت إنك جائع.

- صحيح، لكن يجب أن أستريح قليلًا. إن وضعي لا يسمح لي أن آكل كفاية.

- ليست عندك شهية لأنك تفكر في ثريا.

- لا.. أفكر فيك.

- فيَّ؟

- نعم.

- لكني لست ثريا.

- اسمعي. اذهبي وهيئي لي فنجان قهوة.

- حالا، لكنك تعطيني الأوامر كما لو كنت ثريا.

- إنك خالتي.

واتجهت صوب المطبخ. وتابعها سليمان بنظراته. كان جسدها المكتنز يهتز بشكل ملحوظ. وأخذ يتصور سي أحمد. ومن يدري؟ فقد يكون سي أحمد هذا في سنه هو. كل شيء ممكن. واختفت وراء الباب، وسمع مع ذلك صوت خطواتها فركّز أكثر على خيال سي أحمد ولم يشعر تجاهه بأي عاطفة؟ لم يحقد عليه ولم يحبه وتمدد فوق سريره وركّز نظراته على السقف، وشعر بألم في ظهره لكنه مع ذلك لم يتكئ على جنبه الأيسر أو الأيمن، بل فضّل أن يبقى في وضعه ذاك. وتلمس علبة السجائر تحت السرير، وأشعل له سيجارة وأغمض عينيه. كان صوت خالته قد ارتفع وراء الجدار بلحن، ثم خفت الصوت وانمحى في نهاية الأمر. وشعر بلفحة الهواء فوق رأسه من النافذة ممتعة حقًا. وأغمض عينيه وأخذ يسمع حديثًا متقطعًا لخالته. حديثًا غير مرتب مثل هذيان.

لأن السي أحمد كان هناك. فوحده السي أحمد يعرف أن النساء...

وقالت خالته:

- ها القهوة! إذا أردت أن تدخن.

2

تأبط سليمان فوطته وغادر البيت في الصباح متوجهًا إلى الماء. كانت الرمال حارة، رغم أن الوقت مبكر. بل إن الشمس كانت تبدو مكتملة في السماء. ولمح سليمان مراكب صغيرة مربوطة في مكان يشبه ميناء، ومراكب أخرى سوداء قليلة في المدى. وخلفه كانت مرتفعات وأشجار الرتم كثيفة والطريق الذي يفصل بعض البنايات الصغيرة التي تحوي مكتبًا للتبغ ومقهى وبقالة وحوانيت أخرى، تبدو لامعة نظيفة. وعندما اقترب سليمان من الماء ألقى بثيابه إلى الأرض بدون نظام وأخذ يقوم بحركات لتدفئة نفسه. ولاحظ أن شبحين على بعد كيلو مترين يفعلان مثله عاريين. وكان البحر

هادئًا ومغريًا. وقد قرر سليمان أن يتمتع بهدوئه وإغرائه حتى يحين وقت الغداء. وتوقف عن القيام بحركاته. وأخذ ينظر إلى جسده ويضغط على البثور ذات الرؤوس المدببة المصفرة. فيُخرج حبيبات طرية ملساء ويدعكها بين رؤوس أصابعه حتى تذوب مثل الشحم.

نشر سليمان الفوطة، وحاول أن يجمع ثيابه بقدمه التي لم تكن سوى بلودجين وقميص بلا أكمام. أما فردتا الصندل فقد حفر لهما حفرة في الرمل ودفنهما فيها. وعندما رأى الجسمين البعيدين يطاردان بعضهما في الماء، ذهب بدون أن يفكر إلى الأمواج وألقى بنفسه فيها. وسرعان ما ألفها. وحاول أن يفتح عينيه فشعر بأثر الملح وأغمضهما من جديد، وقرر أن يغطس هذه المرة، مغمضًا عينيه بشدة حتى لا يتسرب إليهما الماء. لكن أذنيه كانتا قد ثَقُلتا. فحرّك شعر رأسه وانتفض وأخذ يضرب بيديه مصارعًا الموجات القليلة المتتالية بلا ترتيب والتي تحمل معها الرمل الكثير وتمنى سليمان أن يلتحق بذينك الشخصين ليلعب معهما في الماء، لكنهما بعيدان، ويبدو أنهما رجل وامرأة لا يريدان أن يضايقهما أحد. وتمدد فوق الفوطة على بطنه وأخذ يفكر ويتأمل في أشياء غير مترابطة. لم يكن معه كتاب، فقد نسي أن يأخذه معه، خصوصًا وأنه في حاجة إلى أن

يتحدث إلى أحد، ولو كان شخصية روائية، وأن يستمع إليه ويُعطي رأيه. كان الآخران الآن يلعبان، ورآهما ملتصقين بعد ذلك واقفين. وتخيل ما يمكن أن يحدث في خلوة كتلك بين رجل وامرأة.. فتشهى ثريا. الفتاة الوحيدة التي تشعره بدفء خاص. فقد كان يشعر وهما ملتحمان بأنهما لن يفترقا أبدًا. شعور لم يعرفه مع امرأة أخرى. فقد كانت الأخريات ينظرن إليه فترهبه نظراتهن التي تبدو ماكرة وغادرة. أما ثريا فتغمضهما بصدق وتصدر عنها أنات دافئة، يشعر معها هو، بأنها تحتمله كثيرًا، وتود المزيد من ذلك إلى ما لا نهاية له من الوقت. لكنه، مع الأسف، طاقته محدودة. طاقة أي رجل محدودة. أليس كذلك يا ثريا؟

- نعم يا سليمان، يكفينا هذا الآن. يجب أن لا نستنفد كل شيء دفعة واحدة. نترك ذلك إلى فرصة أخرى، وأصابعها مغروسة في شعر رأسه في حين تظل رؤوس أصابعه هو، تتجول بالقرب من نهاية النخاع الشوكي في الأسفل. ببطء حتى يناما نهائيًا.

ذهب سليمان راكضًا إلى الماء وتعرض للموجة التي لم تكن بلا زبد واستحلى نعومة الماء وبرودته. كان المكان قد بدأ يمتلئ. فقد انتشر على الرمل، هنا وهناك، عدد من المستحمين.

ورأى سليمان كلبًا يحوم حول فوطته، لكنه لم يبل عليها كما أنه لم يذر الرمل بأظافره بحثًا عن صندل سليمان، بل ظلّ الكلب واقفًا ينظر إلى كومة الثياب دون أن يقربها. وحاول سليمان من بعيد أن يطرده بصراخه لكن الكلب لم يسمعه. ومشى سليمان نحو الكلب والماء المالح يتسرب إلى عينيه فيغلقهما. وعندما اقترب من الكلب ظلّ هذا الأخير جامدًا ينظر إليه باستسلام دون أن يهتم به. رماه سليمان بحفنة رمل حملها على ظهر قدمه. فنصرف الكلب بهدوء باتجاه البنايات. ثم رآه يعود نحوه وخلفه صبي صغير. وكان الصبي حافيًا وقد ارتدى بلودجين أزرق مقصوصًا عند الركبتين، وقد تدلت أهدابه. وعندما اقترب الطفل لاحظ سليمان أنه مرسوم بالمداد الأحمر على السروال قلب يخترقه سهم، وتحته بالإنجليزية: لوف..

قال سليمان: من رسم لك هذا؟

- أنا.

- ومن كتب لك هذا؟

- أنا.

- ما معنى هذا الكتابة؟

- لا أدري، رأيت أختي تفعل هذا في سروالها ففعلت مثلها. نحن لسنا من هنا، نحن من الدار البيضاء، نقضي عطلتنا هنا. إن لأختي فخذين أبيضين هل رأيتهما؟

- نعم.

- أين؟

- لا أدري.

- آه، فهمت. أنت الذي كنت نائمًا معها عندما كانت ماما وبابا نائمين في الغرفة المجاورة.

- تمامًا.

- إن بابا يعرفك، ويعرف أن لأختي فخذين أبيضين. لقد قال ذلك لأمي وسمعتهما.

ثم مشى الطفل، نحو مجموعة من الناس فتبعه الكلب.

وقال سليمان: هيه.. أين أختك؟

لكن الطفل لم يسمعه. وذهب سليمان وغطس في الماء وهو يشعر بسرور عارم. ولم يكن يدري سببه على الإطلاق. إن دبيب الماء فوق الجسم يشعر سليمان بانطلاقة غريبة. انطلاقة من عالم جميل رائع. إلى حلم. مثل ذلك العالم الحالم

الذي يقرأ عنه في سلسلة معينة من بعض الكتب. عالم سحري.

وقالت ثريا: إنني لا أحب السحر، لا أفهمه، لكن أحب التأمل فقط.

وقال سليمان: أنا مادي، ومثلك أيضًا أحب التأمل في المادة لا في أشياء أخرى. قالت ثريا: مثل ماذا يا حبي؟ قال: مثل لا أدري يا حبي. إن لك جسمًا متناسقًا جدًا. عليَّ أن أتأمل تناسقه.. ثم نفض سليمان شعر رأسه من الماء، ورأى الطفل يركض في اتجاهات مختلفة والكلب يتبعه.

كان الكلب يقف أحيانًا على قدميه الخلفيتين ويكرر ذلك لكن الطفل يهرب ويذهب إلى الماء فتضرب الموجات ركبتيه دون أن تمس فخذيه. وقال سليمان إن ذلك لا يمنع من كون الماء سيبلل كل جسده. وصاح سليمان بعد أن كور كفيه حول فمه:

- ووووهـ. و ا و..

ثم قال لنفسه بصوت مرتفع وهو يلتفت حوله حتى لا يسمعه أحد: «يداك أوكتا وفوك نفخ». وحاول أن يسأل نفسه لماذا ولمن قال هذا المثل العربي الذي تعلمه في دروس البلاغة.

ولم يهتم لذلك. فالمكان خال من حوله والحياة جميلة. ثم بدت له التقاسيم الرائعة لجسد ثريا. وحاول أن يتصور أخت ذلك الطفل ذات الفخذين الرائعين، وأن يتصور الشخص الذي كان ينام معها في علم أبيها وأمها.. لا شك أنها جميلة. غير أن ذلك لا يمنع كونها بليدة ولا تتحدث في الكتب والثقافة، بل تتحدث عن مغنين غربيين رأت صورهم في مجلات رخيصة. وشعر سليمان بالتقزز لأنه لا يحبّ هذا النوع من الناس البورجوازيين التافهين، الذين ليسوا لهم همٌّ سوى رفع المهور، وتزويج أبنائهم ببعض الأسماء التي تبدأ بـ(بن). فـ(بن) هي التي تتزوج و(بن) هي التي تلد، و(بن) هي التي تحزن و(بن) هي التي توسع تجارتها في إفريقيا و(بن) هي التي تدفع الرشوة من أجل الحصول على منصب في سفارة خارج المغرب، حتى تقضى جميع أغراض (بن) الأخرى التي توجد داخل المغرب. وهكذا فـ(بن) تجري وراء (بن) ومن ليس (بن) عليه أن يصبح (بن) حتى يقبله وسط (بن).

وفكّر سليمان أن أخت ذلك الطفل هي من غير شك (بن) حفيدة (بن) وأن الذي كان ينام معها في علم (بن) و(بن) إنما هو «بن» مثلهم. وتقزّز لهذه العقلية التافهة المريضة المصابة بـ(بن) وحمد الله أن صديقته اسمها ثريا واسمها العائلي

غير مبدوء بـ(بن) وإلاّ سبّب له ذلك قرفًا لا حدّ له. خصوصًا وأنه عصبي تجاه أخلاق إنسانية من نوع (بن).

وغادر سليمان الماء، وجرى فوق الرمل وهو يقوم بحركات رياضية لطرد البرودة عن جسده. ولاحظ أن عدد السبّاحين قد أخذ يتزايد، لكنهم كانوا متفرقين بحيث تبدو البلاج كما لو كانت خالية. ورأى الطفل يركض ما يزال، والكلب يفعل مثله يتمرغ في الرمل، بألفة شديدة. ونادى سليمان على الطفل، فجاء هذا الأخير وهو يقول:

- بعد قليل ستنزل أختي إلى البلاج وستراك.

- هل تعرّفني بها؟

- إنها تعرفك.

وفكّر سليمان في أن يكون هذا الطفل معتوهًا أو به خلل. ولم يتعجب لذلك، فقد بدا له شيئًا طبيعيًا، خصوصًا وأن (بن) لا تخلو من الخلل وأشياء أخرى.

وقال له:

- هل أنت معتوه؟

وأجاب الطفل: لا أفهم هذه الكلمة.

- طيب أختك، هل فخذاها جميلان؟

- لقد رأيتهما بنفسك. لقد رأيتك حين كنت تمر بأصابعك على الشعر الذي يحيط بشيء أحمر.

وقال سليمان:

- لا شك أن أباك معتوه.

- لا، أبي أصلع، وهو يعرفك. سترى أنه يعرفك. لكن من المستبعد أن ينزل إلى البلاج الآن. إنه يخجل من كرشه.

- هل يمكنك أن تدلّني على البيت الذي تسكنونه هنا؟

- نحن لا نسكن في بيت، ولكن في فيلا. أبي يقول لنا دائمًا قولوا فيلا ولا تقولوا بيت.

ثم ركض الطفل في غير اتجاه وتبعه الكلب، فتمدد سليمان فوق فوطته وأعطى ظهره للشمس وأخذ يبحث عن سيجارة ليدخن نصفها ويحتفظ بالنصف الآخر حتى يشعر بالرغبة في ذلك. ظلّ سليمان ممددًا فوق الفوطة وهو يتمتع بأشعة الشمس تدغدغ ظهره. وفكّر أنه لا بد وأن ينتظر مجيء أخت ذلك الطفل وأن يراها. فقد تصور كل شيء عنها. خصوصًا عن الفخذين الجميلين.. فسليمان يثيره في المرأة فخذاها وساقاها. وكثيرًا ما كان يتمنى لو يضع رأسه بين

فخذين جميلين، ثم يعانقهما بذراعيه، ويظل على هذا الشكل أطول وقت ممكن.

وقالت ثريا:

– إنك تتعبني بذلك يا سليمان.

قال سليمان:

– أجد منتهى اللذة في هذا.

– وأنا؟ أين لذتي؟ فأنا أيضًا أريد أن أعانق شيئًا. لا تكن أنانيًا. تعال نتعانق بشكل طبيعي.

– إني عبد فخذيك.

– أنت تكذب. لو كنت تحبها لأمكن لك أن تجد أحسن منهما عند امرأة أخرى. لماذا لا تقول إنك تحبني؟

– ولكن فخذيك يا ثريا.

– لا أفهم. انهض. عانقني هكذا، لا تكن شاذًا.

رفع سليمان رأسه، وأخذ ينظر إلى الشارع الضيق الذي يفصل بعض البنايات الموجودة عن رأس البلاج وأثار انتباهه رجل يجر دراجة في مؤخرتها صندوق وقد سقطت الدراجة فوقه. أخذ سليمان يضحك بصوت مرتفع ويحك جلد

مؤخرته. بعد قليل سينتفخ جلده، فذلك يحدث له باستمرار عندما يتعرض جسمه للشمس. لكن ذلك لا يطول. بل تختفي الانتفاخات الصفراء وتصير بقعًا حمراء. ثم لا شيء. وبعد ذلك يبدأ جسده، على مدى أيام، في التقشر. فينشغل طيلة أيام بتقشير جسده. وفكّر سليمان أنه يشبه الحيّة إلى حد بعيد إذ تغير قشرتها. وقالت ثريا:

– إنك مثل الحية، تتسرب في جسدي في الفراش مثل الحية.

– لست حية، وإلا كنت قد لدغتك.

– لقد فعلت مرارًا. كفّ عن دغدغتي، فذلك يرعش جسدي، ويؤثر في حالتي النفسية.

ثم رأى سليمان الرجل وهو يغالب الدراجة وحده. وقف ونفض سرواله وامتطى دراجته من جديد. رآه يدوس منطلقًا ببطء، وهو يتمايل فوق السرج، ثم مرّت سيارة كادت تصدم الرجل فانحرف في الأخير، واختفى عن عيني سليمان. وقف وذهب إلى الماء وغطس فيه. أصبح بالقرب منه مجموعة كبيرة من الناس تقدّر بالمئات. وكان الطفل الصغير وكلبه قد اختفيا عن أنظار سليمان. وظلّ يتمنى أن يرى الأخت الجميلة

الرائعة. كما تمنى أن يرى الأب ذا الكرش وقال، سأتحدث إليه حتى ولو كان اسمه يبدأ بـ(بـن). إن ذلـك لا يمنـع مـن أني سأستطيع الاستفادة منه. أو، على الأقل سـأتعرف عـلى ابنتـه. وأخذ يتلهى ببعض نباتات البحر التي طفت فوق المـاء. أخـذ يطاردها ويلصقها بصدره، لكنها كانـت تنزلـق لأنهـا ملـساء فيعاود مطاردتها وإرجاعها إلى مكانهـا فـوق صـدره. وسـأل نفسه عما إذا كانـت هـذه النباتـات تحمـل ميكروبـات مـضرّة للجلد. كفّ عن ذلك، وغطس في الماء من جديد. وأخذ يفرك جسده موهمًا نفسه أنه ينظفه.

3

مرّ على سليمان بالمكان خمسة أيام. قرأ فيهـا قلـيلًا وتأمـل كثيرًا في أشياء ذات بال، وتحدث إلى خالته عن ثريا وسي أحمد. ولكنه لم يكن مرتاحًا بما فيـه الكفايـة. فالوحـدة قاسـية حقًـا، خصوصًا وأنه كان ينوي الانعزال بصورة نهائية. وقد تيقن أن ذلك يستحيل عليه بتاتًا. فالناس موجودون من حولـه. وهـو يتحدث إليهم عن أشياء لا تهمه أحيانًا، شأنه في ذلك، عنـدما كان في الدار البيضاء أو حتى أثناء السنة الدراسية في الجامعـة، الأشياء تتم بشكل مختلف. هناك أحاديث عن الثقافة.. وهناك تطلعات لا تشبه في شيء تطلعات الناس في الحياة العادية. على كل حال، قـال سـليمان بأنـه سـيكون مـضطرًا لانتظـار ثريـا

والحديث عن سي أحمد حتى تتغير الأحوال من حوله. وسيخرج للغابة المجاورة. وهناك البحر بشساعته. والعالم غير مكتظ، يمكن أن يقرأ. وربما حاول الشيء الذي لم يفكر فيه قط – أن يكتب انطباعاته، أن يكتب فلسفته الخاصة، لكنه يعتقد أنه لم ينضج بعد. وربما ألّف كتابًا واحدًا بالاشتراك مع ثريا عندما ينعزلان ذات يوم في بيت يملكانه على رأس جبل هناك في الجنوب قرب تامنار أو سميمو. لكن هذا الكتاب الوحيد الذي يحتار سليمان في اختيار موضوعه.

وقالت خالته:

– إن ثريا تهتم بالسياسة كثيرًا. وهذا هو عيبها الأوحد.

قال سليمان:

– إن ثريا جميلة ولها جسد متناسق.

– نعم كل رجل يشتهيها لذلك فهي تهتم بالسياسة.

– إن أي رجل يهتم بالسياسة لا بدّ أن يشتهيها.

ورأى ذبابة تطن في الفضاء من حوله. تلقفها في السماء، وأمسكها من جناحيها. وفكر في أن يربطها بخيط صغير مثلما كان يفعل وهو طفل صغير في المدرسة. تطير الذبابة وخلفها خيط ملون أو أبيض يحدث في الفضاء تعاريج. وقالت خالته:

– دع الذبابة وحالها. إنها قذرة.

– لكننا عندما كنّا صغارًا كنا نربط خيطًا بـ...

– هل تعتقد أنك صغير. اذهب لتتجول قليلًا، اخرج إلى المقهى وخذْ لك كأسًا من الشاي وتأمل الفتيات الجميلات اللائي يمرَّنَّ أمام المقهى.

في الواقع، لم تكن هناك فتيات كثيرات. فالمدينة صغيرة، لم تسلط عليها الأضواء من طرف الأجهزة الدعائية الرسمية. هناك بعض الفيلات التي اشتراها أو اكتراها أغنياء. وهناك فقراء وهم كثيرون يجلسون في المقهى يحتسون الشاي الأخضر ويسمعون الراديو ويثرثرون حول موسم الصيد القادم. أما الآخرون الأغنياء فيذهبون إلى الشاليه مع زوجاتهم وبناتهم ذوات الأفخاذ الرائعة ويحتقرون كل الناس، وينطقون الراء بغمة خاصة. وتبدأ أسماؤهم بـ(بن) في الغالب. هؤلاء لا يحبهم سليمان ولكنه مع ذلك يذهب أحيانًا إلى هناك فيطلب بيرة خلف الواجهة الزجاجية يتأمل الماء أو يطلب قهوة إكسبريس على الإفريز ويقرأ الصحف. وقال سليمان لخالته:

– أنا في حاجة إلى ثريا. أشعر كلما فات يوم أني في حاجة إليها كثيرًا. لا بدّ أن رسالة منها ستصلني اليوم أو غدًا، لكني لا أعرف ما إذا كان البريد هنا يسير بشكل عادي.

– إن ساعي البريد يمرّ كل يوم أمام البيت. لو كانت معه رسالة لك لما نسيها. هل تعتقد أن الأمور تسير بشكل فوضوي إلى هذا الحد.

تلقف سليمان ذبابة أخرى، فصاحت خالته من هذه القذارة. أطلَقَ الذبابة في الفضاء وهو يمسح يده بتقزز في سرواله.

وقالت خالته:

– هل تعتقد أنك ما تزال طفلًا. انظر إلى شاربيك.

لم يكن له شاربان فتحسس تحت أنفه ليتأكد من أن خالته متيقنة مما تقول.

– لا أدري لماذا تعجبني لعبة الذباب هذه؟

– هذا لا يهمني. يمكنك أن تخرج الآن وتذهب لتتجول قليلًا.

لبّى سليمان رغبتها، غادر البيت وسار باتجاه الشاليه. كان الجو معتدلًا، لذا لم يفكر في أن ينزع ثيابه ويسبح. ثم أحسّ بيد توضع على كتفه فالتفت متفاجئًا. كان أحد الأصدقاء الذين يعرفهم في الدار البيضاء، وقال سليمان:

– غير ممكن.

قال الصديق الذي كان يدعى كريمو، والذي لم يكن يحب النساء:

– كل شيء ممكن. ماذا تفعل هنا؟

قال سليمان:

– وأنت؟ ما الذي تفعله هنا؟

– أنا من هنا.

– من هذه المدينة الصغيرة؟

– وماذا في ذلك؟

ثم عرض عليه سليمان أن يذهب إلى الشاليه، ليشرب قهوة أو بيرة ليتفرجا على البحر وعلى الناس. تمنّع كريمو أول الأمر. ولكنه في الأخير قبل. وفكّر ماذا يستطيع المرء أن يفعل في هذا المكان الصغير إذا لم يقبل دعوة مثل هذه، ومن شخص مثل سليمان؟

كان الشاليه بعيدًا عن البحر قليلًا، ولكن كان يخيل للمرء أن الماء يجري تحته. لم يكن هناك زبائن كثيرون. ولكن الناس كانوا على البلاج ممددين. واختار سليمان زاوية معينة، قرب صندوق الأغاني. وقد تفضل الجرسون فوضع فيه قطعة نقدية وسألهما ماذا يشربان. تردد كريمو قليلًا لكنه لم يطلب قهوة بل طلب بيرة مثلجة. وقال سليمان:

– كنت أعتقد أني لن أعثر على أحد هنا من معارفي. هل تعرف ثريا؟

– من ثريا هذه؟ لا أعتقد.

– صديقتي الجميلة ذات...

بما أن اسمك سيروق لها، فإني سأقدمها لك ولا أعتقد أنها سترتاح لك.

– لا لزوم لذلك إذن.

وأخذ سليمان يضع في ذهنه صورة لسي أحمد. وحاول أن يوجه أوجه الشبه بينه وبين كريمو. ولكن ذلك كان عبثًا. فهو لم ير سي أحمد في حياته قط، وقال:

– هل تعرف، يا كريمو، سي أحمد؟

– من هو سي أحمد هذا؟

– غير مهم. كنت أعتقد أنك سمعت به. إنه رجل.

– كنت أعتقد أنه قط؟

– قط أو رجل سواء؟

وأخذ يضحك، وقال لصديقه:

– لماذا لا تضحك؟ يبدو أنك صعب المزاج.

– أبدًا، لكني لم أسمع ما قلته.

وألقى كريمو بنظراته بعيدًا، حيث كانت فيلات صغيرة ذات ستيل معاصر جدًا.

– هل ترى تلك الفيلات؟ قبل سبع سنوات كان المكان بلقعًا. هذا آخر ستيل في الهندسة المعمارية. يقال إنها بنيت من نقود الوزراء الذين حوكموا بتهمة الرشوة واستغلال النفوذ.

– لا أعرفها.

– غير ممكن.

– كل شيء ممكن.

وأدار سليمان الملعقة في الفنجان، واستلذّ طعم القهوة وأخرج سيجارة وأخذ يدخن. ولم يناول صديقه سيجارة لأنه كان يعرف أنه لا يدخن إذا لم تخنه الذاكرة. وقال له سليمان:

– كان من اللازم أن تدعى ماكاميش.

قال الآخر:

– ماكاميش أو كريمو سواء. إنها تفيد معنى واحدًا. أشكر الله أنه أعفاني من عادات سيئة مثل التدخين والنساء. ولكن ذلك لا يمنع من أني أحب أن أعيش.

وقال سليمان:

- في الواقع، إنها صدفة سعيدة.

- صحيح، صدفة سعيدة. وأستطيع أن أريك هنا أماكن لم تكن تعرفها. لا تعتقد أن صغر هذه المدينة يعني أنها لا تستحق أن تُزار.

- لم أكن أعتقد ذلك. ولكن نيتي كانت هي أن أستريح، وأقضي أوقاتًا طيبة مع ثريا وخالتي حليمة، هل تعرف خالتي حليمة؟

- لا... لم تتح لي فرصة التعرف عليها.

- إن أسماءهم كانت تبدأ بـ(بن).

- هذا صحيح.

- وكانوا ينطقون الراء بنغمة خاصة.

- هذا غير صحيح.

- لماذا؟

- ستحاكم بتهمة التحريض والتفرقة والعنصرية إذا سمعوك تقول هذا الكلام، نحن كلنا مغاربة.

- أنا لم أشتر فيلا بالرشوة.

- ولو..

- طيب لنغير هذا الحديث. الفيلات جميلة، والبنات لهن أفخاذ..

- لا يهمني ذلك.

ورشف كريمو آخر جرعة من بيرته ونادى على الجرسون لينالوله أخرى.

وقال سليمان:

- لا شك أنك تود أن تسكر في الجو المعتدل الجميل.

- لا أريد أن أسكر ولكني سأنزل إلى الماء، إني أرتدي المايوه تحت السروال. هل معك المايوه؟

- لا.. ثم إني لا أستطيع أن أسبح الآن، فأنا أخشى أن أصاب بزكام.

- هل صحتك تتأثر إلى هذا الحد؟

- نعم، وأكثر. يمكن أن تسأل خالتي عن ذلك.

- سنرى ذلك فيما بعد.

ثم أنهى كريمو بيرته الثانية، وقال لصديقه:

- انتظرني. سأذهب إلى الماء بسرعة. بعد ذلك سأشرب قهوة وسنتحادث معًا.

كان كريمو يحب البيرة، ولا يريد أن يسكر لأن ذلك في نظره يبعده عن واقعه القاسي. لكن أحيانًا كان يفضل أن يسكر على أن يتناقش في ريلكه الذي يحبه حتى العبادة. ولم يكن أحد يفهم لماذا يحاول كريمو أن يجمع بين ريلكه وأبي إسحق الصابي، لم تكن له ثقافة عالية، ولكنه كان شبه متخصص في شعر ريلكه وأبي إسحق. فهو يعرف حتى طريقتهما في الأكل أو النوم. وكان يردد بلا مناسبة أحيانًا أشعار ريلكه، ويحاول أن يعطيها أبعادًا لا تحتملها تلك الأبيات ولا يحتملها ريلكه نفسه.

أخذ سليمان ينظر إليه في تفكير وهو يشق طريقه إلى الماء وسط الناس المنتشرين على البلاج تحت. إنه شخص غريب حقًا، مثالي جدًا. ويبتعد تمامًا عن سليمان في كل شيء. لكن هذا الأخير يحب فيه روحه الهادئة وحبه للحيوانات وحتى كرهه للنساء. فهو يتجنبهن عن مذهب لا عن شذوذ. الشيء الذي ليس في ميسور أحد. وساءل سليمان نفسه فيما إذا كان بمستطاعه هو أن يتجنب ثريا. أن يتخلى عنها. وحاول أن يحلل هذه الفكرة ويقنع نفسه ولو مؤقتًا، في هذه اللحظة بالذات، بأن ابتعاده عن ثريا ممكن. ذلك كله عبث في عبث فسرعان ما أخذت تظهر له عارية، وهي تتنهد، تبكي أحيانًا، تغمض عينيها، وتتلوى بين ذراعيه، وتحت جسمه. رأى أيضًا

شعرها الأسود الجميل وقد غطى كل وجهها. كان نهداها مستديرين واقفين وبينهما فجوة مريحة للرؤية، كانت له كلها روحًا، وكل شيء. ارتمى فوقها ولكنه لم يستطع أن ينكـ(...) وظلّ يتحسس بإصبعه الشعرات المعرية تحت بطنها. يفعل ذلك بإصبعه ويفكر في هذه المخلوقة الجميلة التي تبعث فيه إحساسات نرسيسية قديمة. وأخيرًا، لم يكن في إمكانه أن يقنع نفسه بالافتراق عنها. وكان متأكدًا أيضًا، أن الأمر سواء بالنسبة إليها. ثم طرد ذبابة كانت تحوم حول وجهه. ورأى عندما اختفى كريمو من أمام عينيه.. صديقه الصغير الذي لا شك يبدأ اسم أسرته بـ(بن)، وقرر أن يذهب وينادي عليه ليسأله عن أخته، وحتى عن أمه إذا كان ذلك ممكنًا. وأغلب الظن أن أمه ستلبي رغبته أكثر مما ستفعل أخته.. لأن هذه الأخيرة ربما كانت مراهقة مغرورة معجبة بفخذيها وبانتفاخ مؤخرتها وبروز نهديها. فهذا النوع متعب في كل شيء. في العلاقات العادية، وفي فعل الحب. زيادة على أنه يسبب المشاكل نظرًا للإهمال الشديد الذي يتميز به هذا النوع من الجنس الثاني. فأول نطفة تكلف إجهاضًا أو مثولًا أمام المحكمة ثم قفز سليمان الدرجات إلى تحت. مشى فوق الرمل المحرق. توجّه نحو الصبي الذي كان يجري بلا هدف، ويقوم ببهلوانيات في الفضاء ورآه يتوجه نحو امرأة ففرح لذلك، إذ

اعتقد أنها أمه أو أخته. وأغلب الظن أنها أخته، فقد كانت طويلة ذات خصر نحيف جدًا، وربما بفعل الاعتناء به جدًا، واستعمال الفيبر وماسور بنظام فائق، أمه على كل حال لن تكون ذات جسد طويل ونحيف.. ولا بد أنها سمينة مثل بقرة، مترهلة، كثيرة الفكاهة. وتعمل كل شيء من أجل إسعاد الشباب الذي يشبع رغبتها النهمة. هذه هي الصورة التي كانت عند سليمان عن هذا النوع من النساء، وكانت خالته تقترب منهن إلى حدٍّ ما، لكنها لم تكن لتشبههن. وصاح سليمان في الفضاء:

– هيه..

لكن أحدًا لم يسمعه. وأخذ يصفر، ويحدث أصواتًا مختلفة لإثارة الصبي، لكنه أثار انتباه عدد من الناس ولم يثر انتباه الصبي الصغير. وقرّر أن يركض وراءه حتى يدركه ويتحدث إليه. لكن الصبي ابتعد عن المرأة وأخذ يجري بلا هدف. فقرر سليمان في الأخير أن يجري وراءه. ثم أخذ يجري وهو يتألم من شدة حرارة الرمل. فأوقفه جسد رجل. كان كريمو هو الذي أوقفه. لم يعره سليمان أدنى اهتمام واستمر يجري. وقال كريمو: «لا بدّ أنه أصيب بجنون» وأخذ ينظر إليه باستغراب، وتوقف سليمان بالقرب من الصبي. غير أن كريمو لم يفهم شيئًا. ورآهما يتجهان نحوه فقال لا بدّ أن

الصبي من عائلته. كانا يتحدثان مثل رجلين عاقلين بينهما شيء من الاحترام. تعجب كريمو لذلك، وقال في نفسه: «إن هذا الشاب سيصاب بحمق. إنه غير عادي على الإطلاق.. إنه غير عادي على الإطلاق.. ولا أدري كيف يفهم الحياة». وهمّ كريمو بصعود الدرجات القليلة المؤدية إلى فوق، إلى الشاليه، لكنه سمع سليمان ينادي عليه فتوقف، وكان الرمل يحرق قدميه والشمس تخز جسده المبتل، وخصوصًا ما بين كتفيه.. وتقطر الماء فوق جبهته وتسرب إلى فمه فتفل. وقال سليمان:

– هذا هو الصديق الذي حدثتك عنه. له أخت جميلة وأم جميلة أيضًا. أراهن على أنك لا تستطيع أن تخمن جمالها الخارق.

– لم تحدثني عن صديق لك. هل جننت؟ كيف تتخذ من هذا الصبي الصغير صديقًا؟

– لا فرق بين الكبير والصغير. المهم هو إيجاد حوار بين اثنين. وأنا أستطيع أن أتحاور مع هذا الصبي إلى ما لا نهاية. إنه ذكي وإن كان ينتسب لتلك الطبقة القذرة.

– ماذا تقصد؟

– الطبقة البورجوازية. ألا تفهم؟ مهما يكن فالبنات البورجوازيات يعرفن كيف ينكـ(...) وإن كن يكثرن من

ذلك. هنّ نظيفات وسهلات إذا استطعت أن تتحمل كلامهن الفارغ وادعاءهن الذي لا معنى له.

وقال الصبي الصغير:

- سأنصرف. لأن أختي تنتظرني.

قال سليمان:

- هل معها أحد في البيت؟

- لا، ليس معها أحد في الفيلا. إنها تقلّم أظافرها الآن وأمي في الحمام وقد كوّنت قبرًا كبيرًا أبيض من رغوة الصابون. هل تعرف أن أمي غليظة بشكل مثير. مرة ضغطت على أبي بجسمها حتى كادت تخنقه. أخذ يستغيث ويستنجد بالولي الصالح مولاي إدريس. أخذت أبكي أنا وأختي فصفعته وتركته صريعًا فوق الأرض.

وقال كريمو:

- لا بدّ أن هذا الصبي معتوه حقًا. ولا بدّ أنك أحمق يا سليمان. دعه ينصرف وتعال نكمل حديثنا ونشرب بيرات أخرى.

- لا أريد، انتظر قليلًا. أود أن أتعرف إلى أخت هذا الصبي. إنها ترسم قلبًا يخترقه سهم على فخذيها. وتكتب بلون

مغاير: لوف. ألا تعرف ما معنى هذا؟ إنها تبحث عن واحد مثلي ومثلك.

- وإذا كانت عذراء؟ إنها لن تثير لك سوى المشاكل.

- سأغتصبها، سأفعل مثلما فعلت بثريا.

نفض كريمو شعر رأسه. وحاول أن ينصرف إلى الشاليه مستاء. لكن سليمان أمسكه من ذراعه وهو يقول:

- لا تغضب، سنقتسم هذه الغنيمة. لك الأم ولي البنت. على كل حال لك الاختيار.

- لا أريد ذلك. أنت تعرف أني لا أحب النساء. فدع الصبي ينصرف. إني أرى امرأة تنادي عليه.

التفت سليمان فرأى امرأة تنادي جهتهم. لكنها لم تكن تقصد واحدًا من الثلاثة. تأكد من ذلك لأن فتاة كانت بالقرب منهم ترد على المرأة بإشارات.

وقال سليمان للصبي:

- هل يكون أبوك بالليل في البيت؟

- أبي يكون دائمًا في الفيلا. ليل نهار. إنه يخاف أن يُصاب بزكام. له كرش ورأس أصلع. يتقن عدّ المال فقط. لكن أختي تسرق منه وتشتري لي الآيس كريم وتُدخل الرجال من الباب الخلفي.

– وأمك؟ هل تعرف ذلك.

– نعم. أحيانًا يكون رجلان واحد لأمي والآخر لأختي.. أما أنا وأبي فليس لنا رجال ولا نساء. على كل حال، أنا لا أزال صغيرًا ولا أعرف في هذه الأشياء. شعر كريمو باستياء كبير، ودون أن يتحدث إليهما انصرف إلى الشاليه. جلس إلى طاولته وطلب بيرة ثالثة، وأخذ يتمتع بالاستماع إلى الموسيقى. وأثار انتباهه صورة ضفدعة خضراء كبيرة مرسومة على زجاج الشاليه. وسأل الجرسون فأجاب هذا الأخير:

– إذا أردت أن تتمتع. اختصاصات المطعم يوم الخميس أفخاذ الضفادع. لقد ظلّ مطعمنا يحتفظ بهذا التقليد منذ إنشائه رغم أن المسلمين مثلي ومثلك يأنفون من أكل الضفادع. هل أحكي لك قصة؟

وقال كريمو:

– لا. ليس لك الحق بمضايقة الزبائن بحكاية أشياء تخصك.

وقال الجرسون: صحيح. ثم انصرف.

ورأى كريمو الصبي ينصرف وهو يقفز ويذري الرمل في الفضاء. كان سليمان جامدًا في مكانه يفكر في شيء. ثم استدار بسرعة وقفز الدرجات القليلة بخفة. التحق بكريمو وقال:

– وجدتها. هذا المساء سيكون ممتعًا. إذا كنت تود أن تعيش فالحياة قصيرة. تعال معي هذا المساء سنتسلق جدار الفيلا وستكون واحدة لي والأخرى لك.

– إني لا أحب النساء. يمكنك أن تشرب بيرة حتى تستعيد رشدك.

– آه. فهمت. لكن ريلكه كان يحب النساء.

– لا يهمني.

– طيب، هل تريد أن تتزوج برجل. إن ذلك فضيحة حقًا. افعل مثل أوسكار وايلد إذا شئت.

– لا وايلد ولا هم يحزنون. لا أحب النساء. أحب نفسي وأعذبها كما يحلو لي. لا أريد أن أكرر أسطورة تاريخية قديمة.

وقال سليمان بانتباه:

– قل لي بصراحة: هل تمارس العادة السرية؟

– فخجل كريمو من السؤال. وظلّ يحدق في صديقه باشمئزاز. وأعاد سليمان السؤال مما أثار حفيظة صديقه. وقال هذا الأخير:

– اسمع. لا أحب مثل هذا الكلام. إذا كان ذلك سيستمر فمن الأفضل أن نفترق الآن.

- لكنك لم ترَ خالتي بعد.

- شوف لخالتك رجل آخر ودعني وشأني.

وقال سليمان وهو ينادي على الجرسون:

- أعتذر. سأكف عن هذا المزاح إذا كنت تعتقد أن ذلك مزاح حقًا. سأسحب كل ما قلت. هل أنت مسرور الآن؟

وقال كريمو:

- حسنًا تفعل.

4

قال سليمان:

- كيف وجدت أمها؟ إن ابنتها كانت رائعة. ذلك ما كنت سأقوله لك.

- أنا لم أمسس لا أمها ولا أباها. قلت لك إني لا أستطيع أن أفعل. سأحاول ما أمكن أن أترفع عن كل شيء من شأنه أن يدنس جسدي الطاهر هذا.

- لكنهما رائعتان يا كريمو. أراهن على أن الزوج كان هناك مختفيًا في غرفة أخرى مجاورة. وربما، هو الذي شجعها على ذلك. هذا المجتمع يجب أن تعرفه جيدًا، إنه غريب، غريب.